تدنيس المساجد
صـــورة من ظلم المستعمر الفرنسي

إعداد/ د: مبـــارك بوطـــارن

أستاذ محاضر بالمدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة– الجزائر

لا شك أن المتمعن في المظالم التي ألحقها المستعمر الفرنسي بالجزائريين سيجد أنه لم يستثن جانبا من جوانب الحياة، فقد شملت جميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بل الأكثر من هذا فقد تعدتها لتمس الجانب العقائدي للمجتمع الجزائري، و لم يقتصر ظلمه على الإنسان فقط بل طال هذا الظلم كل المناحي المادية و المعنوية ذلك أنه لما وطئت أقدام هذا المستعمر أرض الجزائر الطاهرة يوم 14 جوان من سنة 1830 م لم يكن هدفه من هذه الحملة الاستيلاء على خيرات هذا البلد فحسب بل كان بنية الإدماج وطمس مقومات الشعب الجزائري ، ورغم محاولاته الظهور بوجه المتحضر الذي جاء حاملا معه الحضارة الغربية إلى هذا الشعب، إلا أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار العدد الهائل من الجند الذي سخره لهذه الحملة ([1]) فهذا الأمر يدعونا إلى الاعتقاد أن ما كان يبديه هذا المستعمر عكس ما كان يضمره ، ذلك أن نهجه لسياسة التدنيس والدمار التي ألحقت الضرر المادي والمعنوي بالكثير من دور العبادة ([2]) التي تعد إحدى مقدسات هذا الشعب، ندرك حقيقة هذا المستعمر

وإذا كان هذا المستعمر قد جاء مشهرا سلاحه بيد، فإنه كان ملوحا بالصليب في اليد الأخرى، وما أشرنا إليه سلفا من تدنيس للمساجد عبر التراب الوطني واستعمالها لأغراض مختلفة

1- تشير الكتب التاريخية إلى أن عدد الجند بلغ **37** ألف جندي. أنظر: مصطفى هشماوي، حذور نوفمبر **1954** في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، دار هومة، **1998**، ص**11**.

2- تتحدث كتب التاريخ على أكثر من مائة مسجد (107 حسب سعد الله) كانت قائمة بمدينة الجزائر وحدها . أنظر سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985، ص 169.

3- كان ذلك حال جامع سيدي أبي الحسن بتلمسان، وجامع كتشاوة و القصبة القديم وعلي بتشين والسيدة بمدينة الجزائر.

4- الطاهر بشوشي، صفحات من تاريخ كتشاوة، مجلة الأصالة، السنة الثالثة، العدد**14** -**15**، ماي – جوان، **1973** ،ص **293**.

كتحويل بعضها إلى كنائس وثكنات للجند أو مخازن ([1]) بعد أن استولى على الأوقاف و الأحباس التي كانت مداخلها تنفق على التربية و التعليم وغيرها من الأمور الاجتماعية للمجتمع دون مراعاة لشعور هذا الشعب إنما يدل على حقد هذا المستعمر البغيض وتربصه به لتنصير هذا البلد، ولعل أصدق دليل على ما نقوله ما رآه آنذاك القائد العالم للجيش الفرنسي (الكونت دي بورمون) من ضرورة أخذ الصليب المكانة اللائقة به إلى جانب الانتصار العسكري الذي حققه على حساب شعب أعزل، فأمر أن يرفع على أعلى بناية مشرفة على المدينة، وليس أيضا اعتباطا أن تكون هذه البناية مسجد القصبة القديم الذي يعرف بالجامع البراني ليصبح يعرف منذ ذلك التاريخ بكنيسة الصليب المقدس ، أضف إلى هذا تزايد عدد الرهبان المرشدين للجند بعد سنة 1930 م. ([2])

يستخلص مما سبق أنه مهما كانت أعذار المستعمر، ومهما حاول تبرير أفعاله ، ومهما تحجج بعدم توفركنيسة لجنوده المحتلين يقيمون فيها طقوسهم الدينية، فإن هذا في نظرنا ما هي إلا أسباب واهية، وأن النية كانت مبينة لإذلال هذا الشعب وسلبه حريته، وتنصير هذا البلد المسلم و ربما لا نكون مبالغين إن قلنا أنها حرب صليبية و لا ريب، كيف لا و الدلائل المستقاة من أفواه القادة العسكريين و من أفواه رجال الدين المسيحي و من كتابات مثقفيهم ترمي كلها في هذا الاتجاه، ولعل أحسن مثال على ذلك ما جاء على لسان كاتب مقال" كاتدرالية الجزائر: أثر تاريخي "(يقصد جامع كتشاوة) الذي نشرته مجلة "الجزائر الكاثوليكية " في عددها الصادر في شهر أفريل من سنة 1938 م و الذي نقلنا ترجمته هذه عن الأستاذ الطاهر بشوشي حيث جاء فيها:"إن الجيوش الفرنسية عندما نزلت في سيدي فرج يوم 14 حوان 1930 م قد أطلع الله بها من جديد شمس الإنجيل على هذا البلد الإفريقي الذي طالما سطعت عليه في غابر العصور أنوار مسيحية وهاجة ثم غشيه فيما بعد ليل الهمجية الدامس لمدة إثنى عشر قرنا ". وأي حقد أكثر من هذا الذي يصف نور الإسلام بليل الهمجية الدامس.

وفي إطار هذه الحملة الشعواء أطلق المستعمر العنان ليده لتعربد و تدمر من أجل محو كل ما هو مقوم من مقومات هذا الشعب دون مراعاة لأدنى المعايير الأخلاقية ، فقد تعرضت الكثير من المساجد في الجزائر إلى التدنيس من طرف هذا المستعمر نذكر منها:

- مسجد سيدي أبي الحسن

يقع هذا المسجد وسط مدينة تلمسان وبالضبط في الجهة الغربية لساحة مركز المدينة على بعد خطوات من الجامع الكبير الذي أنشأه المرابطون، ويرجع تاريخ بنائه إلى سنة 696 هـ - 1296م وذلك على يد الأمير الزياني عثمان، الابن الأكبر للأمير يغمراسن بن زيان ، وقد عرف هذا المسجد بسيدي بلحسن التنسي ([1]) بين العامة ([2]) اعتقادا منهم أن هذا المسجد شيد إحياء لروح هذا الفقيه الذي كان له مكانة مرموقة عند أمراء بني عبد الوادي وهذا ربما كان عن جهل لا أمرا مقصودا، ذلك أن النقش التأسيسي الذي كتب على الجص يشير إلى أن هذا المسجد أنشأه الأمير عثمان إكراما لروح أخيه الأمير "أبو إبراهيم" الابن الأصغر ليغمراسن بن زيان اعترفا له بالجميل الذي قدمه له عندما كان سفيرا لهم لدى الدولة الحفصية حيث توسط له في زواجه من ابنة السلطان الحفصي ، وقد جنبت هذه المصاهرة بلدهم الحرب مع جيرانهم آنذاك، ولسنا هنا بصدد البحث والتدقيق في الغرض الذي أنشئ من أجله المسجد، إنما الذي يهمنا هو إبراز مكانة هذا المسجد في نفوس أهل هذه المدينة وتبيان تاريخه المجيد حيث يجمع المؤرخون والأثريون على أنه كان تحفة تاريخية تضاهي بعض مباني الأندلس الشهيرة، وقد ذهب الأستاذ عبد العزيز سالم إلى القول بأنه صورة مماثلة لمسجد قصر الحمراء ([3]) ورغم هذه المكانة العالية التي نالها هذا المسجد في نفوس سكان المدينة ، وفي كونه تحفة فنية ، إلا أن المستعمر لم يراع شعور هؤلاء السكان و لم يعر أدنى اعتبار لهذه التحفة الأثرية فامتدت إليه يد الدمار حيث استعمل أول الأمر كمخزن للعلف الحيواني ([4]) ليتعرض فيما بعد

---

[1] - أدى ازدهار تلمسان في العهد الزياني إلى استقطاب العلماء إليها، فكان من بين هؤلاء الأخوين "أبو إسحاق إبراهيم، و أبو الحسن" الذين ولدا بمدينة تنس وتربيا بها. هاجرا إلى تلمسان فقربهما الأمراء الزيانيون تكريما لهما لما بلغاه من علم.

[2] - G- Marçais, les villes d'art célèbres, Tlemcen, librairie Renouard, H. Laurens, éditeur, Paris 1950, p 46.

[3] - السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الثاني، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982، ص65. وانظر أيضا:

- A,Berque,l'Algérie Terre d'art et d'histoire,gouvernement général de l'Algérie,193, p.175et ss.

[4] - G- Marçais, op.cit, p. 44.

إلى حريق أتى على معظم الزخارف الجصية التي كانت تزين جدرانه ليذهب بذلك جهد الفنان الذي أمضى وقتا من الزمن في نقش هذه الزخرفة في لحظات ، وقد بلغت درجة الضرر التي لحقت به إلى تدمير معظم سقفه المصنوع من خشب الأرز وأغلب زخارف عقوده ، وتلف كل تيجان أعمدته و لم يسلم منها إلا اثنان، ومع كل هذا الدمار الذي لحق بهذا المسجد إلا أنه بدا وكأن أمرا لم يحدث بالنسبة لهذا المستعمر الذي بلغ به الاهتمام بمعالم حضارته إلى درجة الإشادة بمكان سماع أحد مثقفيه بحيازته على جائزة نوبل ويجعل من هذا المنزل الذي هو في حقيقة الأمر منزل خالة هذه الشخصية مكانا يزار على اعتباره معلما من معالم الثقافة الفرنسية . في حين أن إحراق مسجد، أو تهديمه وتعطيله عن أداء مهمته الأساسية ، ومدى الضرر المعنوي الذي ألحقه بالشعب بالنسبة له يعد أمرا عاديا.

– جامع كتشاوة

أنشئ هذا المسجد سنة 1209 هـ/1794 م من طرف حسن باشا، وذلك حسب النقش التأسيسي المحفوظ حاليا بالمتحف الوطني للآثار القديمة و الفنون الإسلامية ، وقد أدخلت عليه تعديلات جذرية – أثناء الفترة الاستعمارية عند تحويله إلى كتدرالية- أتت على معظم معالم طرازه الأول باعتراف الأثريين الفرنسيين أنفسهم([1])، وقد تمت أعمال التجديد في الفترة الممتدة ما بين سنتي 1844 و 1868م، استعملت فيها بعض المواد والعناصر المعمارية التي جلبت من مدينة شرشال ومن إيطاليا ([2]) فأضحى البنيان الجديد الذي كان يغلب عليه الطراز المعماري المعماري العثماني مزيجا من الفن البيزنطي والروماني والإسلامي ، ورغم محاولات القساوسة الذين تناوبوا على منبره- وعلى رأسهم كبير أساقفة الجزائر آنذاك لافيجري – طمس المعالم الأصلية لهذا المسجد إلا أن ما تبقى منها كالمنبر وعدد من الأعمدة الرخامية، و بعض عناصر العمارة الأخرى كالميضأة ما هي في حقيقة الأمر إلا شواهد مادية عن عراقة هذا المبنى وهويته الإسلامية.

وكان عيد الفصح الذي يحتفل به النصارى كل سنة الموافق لليوم الرابع والعشرين من سنة 1932م هو الموعد الذي اختاره القسيس كولان لتمسيح المسجد وتحويله إلى كتدرالية الجزائر كما أصبح يعرف منذ هذا التاريخ . وقد شهد منتصف هذه الليلة وهو الوقت الذي

---

[1]- G.Marçais, Manuel d'artmusulman,l'architecture,Tunisie,Algérie,Maroc,Espagne,Sicile, éditions Auguste Picard, Paris, 1927, P.780.

[2]- Ibid, P. 782.

يقيم فيه المسيحيون طقوس الاحتفال بهذه المناسبة حشد أكبر عدد ممكن من الجند الفرنسيين والمعمرين الذين جاءوا من مختلف بلدان الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط ليدنسوا حرمة هذا المسجد ويحرموا سكان مدينة الجزائر المسلمة من ممارسة شعائرهم الدينية به مدة مائة وثلاثين سنة .([1])

وإذا كان مسجد كتشاوة قد سلبت منه وظيفته الأساسية كما سلب من سكان مدينة الجزائر حقهم في ممارسة شعائرهم الدينية فيه كما اعتادوا على ذلك منذ سنة 1209 هـ/1794م وهو تاريخ إنشائه ، فهذا لم يثن عزيمتهم فشاءت حكمة الله أن يثور الشعب الجزائري في وجه هذا المستعمر الغاصب وينظم صفوفه وكان من نتائج هذا العمل أن أعادوا لمسجدهم مكانته ووظيفته الأصلية ذات يوم من سنة 1962م عندما انهزم المستعمر ورجع منكسر الخاطر ليرفع صوت الآذان من جديد خمس مرات من مئذنته بعد أن عطلت مدة طويلة من الزمن، وتشاء الأقدار أيضا أن تدشن عودة المسجد على يد أحد علماء الجزائر الأفذاذ الشيخ البشير الإبراهيمي الذي أم فيه أول صلاة جمعة بعد الاستقلال ليدشن بذلك صفحة جديدة من تاريخ هذا المسجد العتيق.

و لم يكن مسجد كتشاوة الوحيد في مدينة الجزائر الذي تعرض إلى التمسيح فحسب بل لقد طالت يد المستعمر مساجد أخرى مثل مسجد علي بتشين الذي حول إلى كنيسة "سيدة الانتصارات"(Notre-Dame des victoires).والذي يعود تاريخ بنائه إلى ما قبل سنة 1622م من طرف أحد القادة الإيطاليين الذي اعتنق الإسلام وأصبح يعرف بعلي بتشين، و لم يراع المستعمر مكانة هذا المسجد التاريخية كونه يعد أقدم مساجد الجزائر التي تعود إلى الفترة العثمانية بل ضرب كل هذا بعرض الحائط وراح ينفذ مشروعه التنصيري. ([2])

ومن مساجد مدينة الجزائر التي حولها المستعمر إلى كنائس أيضا مسجد القصبة الذي بناه الداي حسين سنة 1233 هـ/1818م وحول إلى كنيسة "الصليب المقدس"(Sainte-Croix) ، وقد غير هذا الفعل الذي أقدم عليه المستعمر الكثير من ملاح عمارته الأولى([3]).

ومن مساجد مدينة قسنطينة نذكر مسجد سوق الغزل الذي يعود تاريخ إنشائه إلى سنة 1143 هـ/1730م ، وقد حول بدوره إلى كتدرالية المدينة ([4]).

---

[1]- الطاهر بشوشي، المرجع السابق، ص 296.

[2] - G- Marçais, op.cit. p.777 ss.

[3] - G- Marçais, op.cit.p.784

[4] - Ibid, p.787.

ولم يكتف المستعمر بتحويل المساجد إلى كنائس ، بل لقد بلغ به الأمر من التعنت والعنجاهية إلى درجة تهديم المساجد دون مراعاة لمشاعر المسلمين متذرعا في ذلك بحجج واهية ، وقد كان بإمكانه تنفيذ مشاريعه العمرانية كما يزعم دون المساس بحرمة المساجد، وكان ذلك حال مسجد السيدة الذي طالته معاول التهديم.

أنشاء هذا المسجد محمد باشا الذي حكم الجزائر في الفترة ما بين سنتي 1765م إلى 1791م وقد بني هذا المسجد مكان مسجد آخر حسب ما أشار إليه "هايدو" قبالة الجامع الكبير الذي يرجع إلى عصر المرابطين في المكان المعروف اليوم بساحة الشهداء ، وكان من بين المساجد الأولى التي هدمتها الحكومة الفرنسية بغرض بناء الحي الفرنسي.([1])

وختاما لهذا العرض نود الإشارة إلى أن هذا العمل الذي أقدم عليه المستعمر شيء قليل من كثير، وما أبرزناه هنا أيضا لا يعبر عن كل الأضرار ولا عن كل المساجد التي تعرضت إلى عبث يد المستعمر ، وإنما حسبنا في ذلك المادة العلمية التي تمكنا من جمعها لإظهار هذا الظلم الذي لحق بأحد أقدس مقدسات الشعب الجزائري إلى جانب لغته العربية ووطنه ألا وهو دينه وعقيدته التي طالما حافظت على هويته وتماسكه الاجتماعي منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ممثلة في دور عبادته. وهذا يكفي للاستدلال على أن الشعارات التي كان يرفعها المستعمر كلها زيف وعارية عن الحقيقة التي كان يبديها ، وأملنا العودة إلى هذا الموضوع إن أتيحت لنا فرصة أخرى للخوض فيه

---

[1] - G- Marçais, l'architecture musulmane d'occident ,arts et métiers graphiques, Paris, 1954, p.428.